مقدمة

الحمد لله تعالى، الذي بنعمته وفضله تتم الصالحات، الحمد لله الذي يشرح الصدور في الابتداء، ويقوي العزائم على الانتهاء، بيده الخير كله، إنه على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على رسوله المصطفى الكريم محمد بن عبد الله الصادق الوعد الأمين، وعلى سائر الأنبياء والرسل أجمعين، وعلى آل بيته وصحابته المكرمين، ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين...

وبعد...

فإن هذا الكتاب قد ضم بين دفتيه محاولة صادقة لشرح وتحليل أهم الصيغ والأساليب والأدوات التي قدمها الفكر الإسلامي المعاصر، واستنهض مقوماتها من الثروة الفكرية العظيمة التي ورثها المسلمون من جهود العلماء واجتهادهم عبر أربعة عشر قرنًا من الزمان، تلك الصيغ والأساليب التي أُنزلت إلى التطبيق خلال الثلاثين سنة الأخيرة، وتم تجريبها وإعادة هندستها بما يلائم عمل المؤسسات المالية والمصرفية المعاصرة، وبما يحقق مصالح الناس ذات الاعتبار من الشرع الإسلامي، ويؤسس ضوابطها وإجراءاتها وعقودها على ضوء الشريعة الإسلامية، وفى إطار اجتهاد جماعي مؤسسي قامت به بإخلاص هيئات ومجامع فقهية ذات اعتبار وحيثية، واعتراف من كل ذوي الرأي والإخلاص والحكمة.

إن هذا الكتاب قد حاول أن يقدم بين يدي المتهمين تعريفًا للخصائص والمرتكزات التي يقوم عليها التمويل والاستثمار الإسلامي، والتي تعمل في إطارها هذه الأساليب والأدوات والصيغ التمويلية، وكذلك التي تترتب على تطبيقها بإخلاص وتفان.

obeikandi.com

أن النظام المالي المعاصر أحوج ما يكون إلى أن يُعاد بناؤه على فكر جديد، ومنهجية متماسكة، تحقق الوقاية والسلامة من الاختلالات والعيوب التي أصبحت ملازمة لهذا النظام، ما تلبث أن تختفي حتى تعود بعنف وقوة تعصف بكل ما سبق بناؤه، وتدمر مدخرات الخلق، وتحدث الخراب في المؤسسات المالية والمصرفية... ثم ينتقل أثرها من الجانب المالي والنقدي إلى الأصول العينية والحقيقية لاقتصاديات الأفراد والدول.

إن الكاتب يؤمن بيقين أن المنهجية التي تعمل في إطارها الأساليب والصيغ التمويلية الإسلامية، لو تم التمكين لها وتهيأت البيئة الملائمة، والمقومات الكافية لنموها وأداء دورها، في ظل إرادة قيادة واعية راغبة في تحقيق مصالح الناس الأنية والمستقبلية، لو تم ذلك لبرئت النظم المالية المعاصرة من كثير من الأمراض والعلل والاختلالات، ولأمن المدخرون والمستثمرون بل والمؤسسات نفسها من الذعر والهلع والخوف الذي يحدث بين الحين والآخر.

أن المؤسسات المالية والمصرفية المعاصرة والتي تأسست على فكر المداينات، وبنت كل أدواتها في ضوء ذلك، وعالجت كل مشكلاتها من خلاله هي في خطر حقيقي؛ لأن فكر المداينات قد تبني آليات الربا بصوره وأشكاله، وأنفصل في الغالب الأعم عن حركة الاقتصاد الحقيقي الذي هو أصل حركة الحياة في المجتمع، وأصبحت النقود (التي هي وسيلة وأداة ومقياس) سلعة وبضاعة تدور حولها كل المعاملات وتتحقق من خلالها كل العوائد، بصرف النظر عن عوائد الاقتصاد الحقيقي... وإن من قد يكسب هو من يتعامل بالنقود والأموال السائلة والأصول المالية في الوقت الذي تكون مقومات الاقتصاد الحقيقي من زراعة وصناعة وتجارة وخدمات في وضع عجز أو خسارة... فهذه إما أن تكسب أو أن تنسحب وتنزوي وتنتقل إلى سوق آخر تجد فيه ضالتها.

لقد تحولت النظم الرأسمالية التقليدية التي حققت التراكم العظيم في المجتمع الرأسمالي، وكانت سبب تقدمه إلى أن أضحت مصدر خطر عظيم عليه، وخطر أعظم على الدول النامية أو الأقل نموًّا.... أنها الرأسمالية النقدية المتعدية الجنسية، المتجاوزة للأوطان، التي تبيت في الفضاءات المفتوحة، وتتحرك بسخونة وعنف إلى أي سوق حيث تشتم فيه رائحة الأرباح فتهبط وتشتري الأصول المالية القابلة للتحول إلى نقدية، ثم تجني ثمار ذلك عندما تحين الفرصة في حركة يومية لا تكل ولا تمل، وتبيع في ثوان ما سبق شراؤه حيث تتبخر إلى الفضاءات، إلى سوق مازالت لديه فرصة أخرى، وهكذا في حركية دائمة.

هذه هي الصورة الغالبة التي تتحرك فيها مئات المليارات من الدولارات يوميًّا قاطعة عشرات الآلاف فمن الأميال من أسواق المال في شرق آسيا واليابان إلى الشرق الأوسط و أوروبا ثم أمريكا وقد تعود حيث بدأت. فتخرج من أسواق فجأة وبعنف فتهبط وقد تنهار مؤشراتها، وتدخل إلى أسواق أخرى فترتفع مؤشراتها فجأة ويحدث الرواج المؤقت في عملياتها، حتى يتحقق الهدف فتبيع لتجني الثمار، وتغادر كما جاءت.

إنها لعبة كبرى، ولعل الأزمة المالية العالمية الحالية (أكتوبر ٢٠٠٨) خير شاهد على ذلك، والخروج من الأزمة تلك لا يكون من خلال ضخ الأموال الهائلة النقدية فقط، لتدخل إلى نفس النفق، وتتحرك بنفس الآليات، مستخدمة نفس القواعد، ولكن الخروج يتطلب إعادة النظر بعمق وجذرية... لأن الأزمة ترتبط باختلالات هيكلية في النظام المالي المعاصر... **يجب البحث عن آليات وقواعد وأساليب جديدة تعطي الاعتبار للاقتصاد الحقيقي وتُعلي من شأن المنتجين (من صناع وزراع وتجار وحرفيون ومقدمي خدمات ومحققي منافع مادية وملموسة ...) وتضع ضوابط لمفاهيم المديونية والعقود المشتقة منها ...**

إن الأمر جد خطير ... ولا شك أن جهد الباحث المرصود في هذا الكتاب هو جهد متواضع، لكنه ... هو منه محاولة صادقة للفت النظر إلى أن هناك بدائل حقيقية طبقت... أو قابلة للتطبيق... هي طريق ثالث قد يُرشّد النظم القائمة... يبني على المبادئ الإيجابية فيها ويضيف إليها أدوات وصيغ وأساليب جديدة ... أو يطِّعمها ... أو يخفف من غلوائها وآثارها السلبية.

كان هذا هو الهدف... فإن كنت قد وُفقت... فالفضل كل الفضل من الله سبحانه وتعالى وإن كان هناك قصور وتجاوز فهو مني... وأدعو الله أن يغفر لى ولكم ويتغمدنا جميعًا برحمته... أنه سبحانه ولي ذلك والقادر عليه... وهو سبحانه الموفق والمستعان... والهادي إلى سواء السبيل.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

د. الغريب ناصر

القاهرة – نوفمبر ٢٠٠٨م

openkandl.com